﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1-2]

❁ مُناسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ:

طالبُ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عَقائده وتَشريعاته وأحكامِهِ

لمَّا ذُكِرت الهدايةُ في سورة الفاتحةِ وأنَّها من مَطْلُوبات المُؤمنين، وذُكِر فيها سالِكُوها؛ ناسبَ أن يُبَيَّن مَصْدَرُهَا، وهو هذا القرآنُ الكريم، فجاء قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، مُبيّنا أنّ طالبَ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عقائده وتشريعاته وأحكامه.

الأحرفُ المُقَطّعةُ للتّحدّي، وهي إيماءٌ للفُصحاء أنّ القرآنَ من نسيج لغة العرب، وعَدَمُ إتيانهم بمثله دليلُ عجزهم، وبُرهانُ نُبُوّة محمد ﷺ:

ولمَّا كان الكتابُ الذي لا يَنْبَغِي أن يُشَكَّ أنَّه من عند الله تعالى، لا تتَأَتَّى معارَضَتُهُ؛ قدَّم ذَلِكَ بقولِه: ﴿الٓمٓ﴾؛ للتَّنْصِيص على أَنَّ عدمَ قُدْرَة الخَلْقِ على مُعارضَتِه ليس لكونِه بحروفٍ تُخالِفُ ما يُرَكِّبُون به كلامَهُم، بل حروفُه حروفُهم، فإنْ شكُّوا في مصدرِهِ الإلَهِيِّ وادَّعَوْا صُدورَه عَن بَشرٍ؛ فلازِمُ ذَلِكَ قدرَتُهم على الإتيَانِ بِمِثْلِه.

وجملةُ القول: إنّ الأحرفَ المُقَطّعة -الَّتي بدأ بها الباري ﷻ تِسعًا وعشرين سورةً من سُوَر القرآن الكريم- هي حُروفٌ هجائيّة من لغة العرب، بها يَنْسُجون كلامَهم، ويَنْظِمون أشعارَهم، ويرتَجِلون خُطبَهم، وقد بلغوا في الفَصاحة والإفصاح والإبانة والتّبيين شأوًا عظيمًا لا يُبارى، وذُروةً قعساء لا تُضاهى، حتّى إنّهم أقاموا للشّعر أسواقًا، وللكلمة محافِلَ، فجاء القرآنُ الكريم بأعظم بيان وأجزل تعبير، وجاءت افتتاحيّاتُ الأحرف المقطّعة في بدايات بعض سوره ولسانُ حالِها يقول: إنّ هذا القرآنَ مُنَزّلٌ من جنس هذه الحروف التي تعرفونها، وتتحدّثون بها، وهو في الذّروة العليا من البلاغة والبيان، فإن كنتم تستطيعون أن تَنْسُجوا على مِنواله فافعلوا.

الأحرُف المُقطّعةُ عُنوانُ التّحدّي، مُنبِّهَةٌ إلى فصاحة القرآن وعُلُوّ شأنه في الإبانة، ورَمْزٌ للإعجاز البيانيّ:

إذًا، هي أحرفٌ للتّحدّي والتّنبيه إلى فصاحة القرآن وعُلُوّ شأنه في الإبانة والتّبيين، ورمزٌ للإعجاز البيانيّ. وقد كثُرت أقوالُ النّاس في تفسير معاني هذه الأحرف، وعند النّظر المُستبصِر فيما جاء فيها من أقوال، يجد الباحث أنّها مَحضُ تأويلاتٍ لا شيء يعضُدُ صحّتها، والمؤمنُ يُفوّضُ، في نهاية أمره، أمرَ العلمِ بهذه الأحرف إلى اللّه تعالى علاّم الغيوب.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأحرُفُ المُقَطَّعَة تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا:

1) ﴿الٓمٓ﴾: هذه الأحرُف يُقَال لَهَا: الأحرُفُ المُقَطَّعَة؛ لِكَوْنِها تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا، وقَدِ افتُتِحَت بها جملةٌ مِن سور القرآنِ؛ وهي تسعٌ وعشرون سورةً.

وقد تنوَّعت هذه الحروف باعتبار عددِها[1]؛

فمنها الأُحاديّ، مثل: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾.

ومنها الثُّنائِيّ، مثل: ﴿يٰسٓ﴾ و﴿حٰمٓ﴾.

ومنها الثُّلاثيّ، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓرٰ﴾.

ومنها الرُّباعيّ، مثل: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٰ﴾

ومنها الخُماسيّ، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حٰمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾، ولا أَزْيَدَ مِنْ ذلك.

أرجـحُ الأقـوالِ فيها أنَّها أحرُفٌ هـجـاءٍ، أُشـير بها إِلَى إِعْـجَـاز القرآن الكريم

وقد اختُلِفَ في المُرادِ مِنْهَا اختلافًا كبيرًا، والحديثُ عنها مبسوطٌ في كُتُبِ التَّفسيرِ، واستقراءُ القرآنِ العظيم يرجِّح أنَّها حُرُوفُ هجاءٍ، أُشير بها إِلَى إِعْجَاز القرآن الكريم؛ إِذْ كانَتْ حروفُهُ ليسَتْ بخارجةٍ عمَّا تَسْتَعْمِلُهُ العرَبُ في كلامِهَا، ومع ذلكَ عجَزوا عن معارضتِهِ[2].

ويَدُلُّ لذلكَ شهادةُ استقراءِ القرآنِ لهذا القول: بأنَّ السُّوَرَ المفتتحةَ بالأحرُف المقطّعةِ يُذكَرُ بعدَها مباشرة القرآنُ الكريمُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/71، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 1/263.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/137، والزّمخشريُّ، الكشّاف: 1/27-28، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/7، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.

والانتصارُ له غالبًا[1]، أو يُذكَرُ شيءٌ هو مِنْ خصائصِهِ[2]، وأنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وذكرُ ذلك بعدها دائمًا دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروفَ المقطَّعةَ قُصد بها إظهارُ إعجازِ القرآن، وأنَّه حقٌّ[3].

أمَّا اختيارُ نفسِ الحروفِ المعيَّنَةِ؛ فالأرجَحُ أنَّ حِكْمَتَهُ مَطْوِيَّةٌ عَنَّا، ولا يمنَعُ هذا مِنْ تلمُّسِ المُنَاسبَاتِ لِمَنْ ظهَرَتْ لَهُ وتأيَّدَتْ عِنْدَهُ بالقرَائِنِ مِن دون جُنوحٍ إلى التكلُّف، واللّٰه أعلمُ.

أصلُ الكَتْب ضمُّ شَيْء إلى شَيْء، والمُرادُ بِالكتاب في مَطْلع البَقَرَة القُرآنُ الكريم

2) ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّٰه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ يعنى: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[6].

ويأتي ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[7]، والمُرادُ بِهِ في طالِعَةِ البَقَرَةِ: القُرآنُ الكريمُ[8].

الرَّيْبُ شكٌّ مَعَ تُهْمَةٍ

3) ﴿رَيْبَ﴾: الشَّكُّ مَعَ تُهْمَةٍ[9]، ويُطلق على الشَّكِّ مَعَ خوفٍ، يُقال: رَابَهُ الأَمْرُ؛ إِذَا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[10]، وأصلُ الرَّيْبِ: "أَنْ يَنْزِلَ بالقارِّ السَّاكِنِ ما يُزْعِجُه ويَسوءُهُ"[11].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/160.
(2) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/165.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورِينيّ، المطالع النَّصْرِيَّة، ص: 41.
(6) نصر الهُورِينيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(9) ابن دُريد، جمهرة اللغة: (ريب)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللغويَّة، ص: 264.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ريب).

وقيل: هو مرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ يُقال: لا ريبَ، ولَا شكَّ، ولَا مِرْيَةَ؛ بمعنًى واحدٍ[1]، ولذا جاء في الكليَّات: "كُلُّ مَا فِي القُرْآن مِن رَيْبٍ فهُوَ شكٌّ، إِلَّا ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: 30]؛ فَإِنَّ المُرَادَ حوادثُ الدَّهْرِ"[2].

والقول بترَادُفِهِمَا فيهِ نَظَرٌ، وأمَّا ما نقله ابنُ أبي حاتمٍ مِنَ الإجماعِ على تفسير الرَّيبِ بالشكِّ[3]؛ فهو مُؤَوَّلٌ بِمَا سيأتي في الفُرُوق المعجميَّةِ إن شاء الله.

التَّقوى جَعْلُ النَّفس في وِقَايةٍ مِمَّا يُخافُ، وحقيقتُها شرعًا: اتِّخاذُ وقايةٍ مِنْ عذَابِ اللهِ تعالى:

4) ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اسمُ فاعِلٍ مِن (اتَّقَى)، وهو افتعالٌ مِن (وَقَى)؛ فأصلُ التَّاءِ من (اتَّقى) واوٌ: اوْتَقَى[4]، ومصدر (اتَّقى): الاتِّقاءُ.

والتَّقوى والتُّقَى: الصِّيانَةُ وَالحِفْظُ[5] أو: جَعْلُ النَّفس في وِقَايةٍ مِمَّا يُخافُ[6]، أمَّا الاتِّقاء؛ فهو افْتِعَالٌ مِنَ التَّقْوى يُرادُ به: اتِّخاذُ الوقاية[7]، فالافْتِعَال هَهُنَا بمعنَى الاتِّخاذ، كما يقال: اخْتَتَمَ زَيْدٌ؛ إذا اتَّخذ خاتمًا، واخْتَدَمَ إذَا اتَّخَذ خَادِمًا، ونحو ذلك[8].

والمتّقون: الذين يتخذون الوقايةَ مِنْ عذَابِ اللهِ تعالى، وذلك بِفِعْلِ أوامِرِه واجتنابِ نَوَاهِيه[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

القرآنُ كتابُ اللهِ المُعجزُ الذي لا ريبَ يَعْتريه، يهدي المُتّقين إلى صراط الله المستقيم

هذا القرآنُ العظيمُ الرَّفيعُ الشَّأنِ والمنزلةِ، مع أنَّه مُؤَلَّف مِن حروفٍ مَعْهودةٍ لَدَيْكُمْ، تتكوَّنُ منها لغتُكم - أيُّها العربُ - فيها إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن؛ الذي أنتم عَاجِزونَ عن مُعارضَتِه، فدَلَّ عَجْزُكم عن الإتيانِ بمثله - مع أنَّكم أفصحُ الناس- على أنَّ القرآن وحيٌ من الله، لا يَنْبَغِي لأحَدٍ أَنْ يَرْتابَ فيه؛ لأنَّه في نفسهِ لا شكَّ

(1) ابنُ مالك، الألفاظ المختلِفَة في المعاني المُؤتَلِفَة، ص: 166.
(2) الكَفَوِيُّ، الكلِّيّات، ص: 464.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ريب)، والزَّبِيدي، تاج العروس: (ريب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ريب)، والرّاغب، المفردات: (ريب)، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (ريب).
(6) الرّاغب، المفردات: (ريب)، وصف الرّاغب هذا البيانَ بأنَّهُ التَّحْقِيقُ.
(7) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 65.
(8) الحملاويّ، شذا العرف في فن الصَّرف، ص: 32.
(9) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/478.

فيه من أيِّ وجهٍ من الوجوه، فهو كلامُ اللّه ﷻ، المُنَزَّهُ عن الخطأ. ينتفع بهدايَتِه المتقون الذين يخافونَ اللّه، ويتَّبعون أحكامَه[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الِافْتِتَاحِ وبَراعَتُهُ بِالبَداءَةِ بِالأحرُفِ المُقَطَّعَةِ:

الأحرُفُ المُقَطَّعةُ وسيلةُ استِصْغاءٍ وتَنبيهٍ لِمَا بَعْدَها

ابتداءُ السُّورةِ الكَريمَة بالأحرُف المُقَطَّعةِ حُسْنُ افْتِتاح، ووَجْهُهُ: أنَّ فيها نوعَ غَرابَةٍ، وقد جرَت العادَةُ بالْتِفَاتِ النَّاسِ واسْتِشْرافِهِمْ للغَريبِ ليَقِفوا عَلى حَقيقَتِه ومُعَمَّاهُ، فإذا الْتَفَتوا إلى القَوْلِ الغريبِ؛ وقعَ مقصودُ الكَلامِ الذي بعدَهُ على قُلوبٍ مُسْتَشْرِفةٍ؛ فيُبْلَغُ به المُرَاد، قال السُّيوطِيُّ: "والذي عندي أَنَّ اللّه وَضَعَها لإطْفَاءِ تَشْغِيبِ الكُفَّار حيث قالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: 26]، فأتى اللّه بها لِيَسْمَعوهَا لِغَرابَتِها، ثُم يُبَلِّغُ الرَّسول رسالَتَهُ"[2].

وفي هذا الابتداءِ أيضًا براعةُ استهلال -وهي أَخَصُّ من حُسن الِافْتِتَاح-؛ إذْ إنَّ الابتداءَ بالأحرُف المُقَطَّعَة فيه إيماءٌ إلى أَنَّ المُتَحدَّثَ عَنْهُ مِنْ لسَانِ العَرَبِ؛ وهو القُرآنُ الكريمُ، ومَوْضِعُ الإيماءِ آيةُ التَّحدِّي، ففي الأحرفِ المقطَّعةِ تلويحٌ بعجزِ العرَبِ عن الإتيانِ بكلامٍ منظُومٍ من جنسِ كَلامِهم.

سِرُّ الإشارةِ إلى الكتابِ باسمِ الإشارةِ الخاصّ بالبُعد:

عُلُوُّ القُرآنِ الكَريمِ وتَرَفُّعُهُ عَنْ دَعاوَى المُشَكِّكين

قولُهُ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ الكريم، وقَد عُبِّرَ بـ(ذلك) وهُوَ اسْمُ إشارةٍ موضوعٌ لِلبَعيدِ، والقُرآنُ الكريمُ المعبَّر عنه هَهُنا بالكِتابِ حاضِرٌ قريبٌ، ووَجْهُ ذلكَ: الإيماءُ إلى عُلُوِّ مكانتِه، وسُمُوِّه عَنْ أَنْ يُشَابِه كلامَ البشَرِ، والإشارةُ إلى أنّهُ مُتَرَفِّعٌ عمَّا يدَّعيه الكفَّارُ فيه مِنْ كونِهِ سِحرًا أو كَهانةً أو شِعرًا ونحوَ ذلك[3].

(1) البِقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 1/80، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(2) السُّيوطي، معترك الأقران: 3/200.
(3) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

بلاغةُ الإشارةِ بالبُعدِ، مَعَ قُربِ القُرآنِ من القُلُوبِ

وقد وردَت الإشارةُ إلى القرآن بالقُربِ في عِدّة مواضعَ مِنَ القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، ووَجْهُ ذلكَ: التَّنويهُ بقُربِ القرآن مِنَ الأسماعِ والألسنَةِ والقلوبِ[1].

فالقرآنُ الكريم على هذا التَّوجيهِ قريبٌ باعتبارٍ، بعيدٌ باعتبارٍ آخرَ؛ فلمَّا ذُكِرَ القُرآنُ في سِياقِ دَفْعِ الرَّيْبِ عنه اسْتُعمِلَتْ معَه أَدَاةُ البَعيد، ولـمَّا ذُكِرَ في سِياقِ الهدايَةِ اسْتُعمِلَتْ معه أدَاةُ القَريب.

القرآنُ سامٍ في لُغتِه ومَضمونِه، فائقٌ في إحكامِه ونَظْمِه

إيثارُ البُعْدِ في طالعةِ البقرَةِ؛ لافتتاحها بالأحرُف المُقَطَّعة المُومِئةِ إلى التَّحدِّي بالقرآن، يُشْعِرُ بِعُلُوِّ شأنِه وَتفوُّقِه على سائرِ الكلام، فكانَ الأنسبُ التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعْدِ للتَّنْويه بهذا المعنى؛ ولذا نَجِدُ كلَّ سُوَرِ القرآن المُفتتحةِ بالأحرُف المُقَطَّعة قد ذُكِر فيها القرآنُ مُشارًا إليه، والإشارة وقعَتْ باسْمِ الْإِشَارَةِ لِلبَعِيدِ[2]؛ لهذا التَّعْليل، واللّه أعلمُ.

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ بَيْنَ الكمالِ والعهد:

القرآن كتاب الكمال على الحقيقة

وأل في ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ لِلكَمالِ، أي: ذلك الكتابُ الكاملُ في نَظْمِه وبلاغته ومَعَانيه وَأحكامه وتشريعاتِه؛ فكأنَّه المُتفرِّدُ باستحقاقِ اسْمِ الكتابِ، وغيرُهُ ليس بكتابٍ على الحقيقةِ[3].

ويتأكَّدُ هذا المعنى عِنْدَ مَنْ يختار الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾[4]؛ إذِ الجملةُ حينئذٍ تكونُ مُكوَّنةً مِنْ مبتدأٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وخَبرِه ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، وهما مَعْرِفَتانِ، وتعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ مفيدٌ لِلقَصْرِ[5]، وهو هنا قَصْرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، على المعنى الذي سبق آنِفًا.

---

(1) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

(2) وهي: البقرة، ويونس، ويوسف، والرَّعد، والحِجر، والشُّعراء، والنَّمل، والقصص، ولقمان؛ فهي تِسعُ سُوَرٍ.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/33.

(4) وهو وقف ضعَّفه أبو بكر الأنباريُّ في إيضاح الوقف والابتداء: 1/486، وقال الأشمونيُّ في مَنار الهُدى، ص: 74، مبيِّنًا وجهَ الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: «إنْ جُعِلَ ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك، وإن جُعِل بمعنى: حقًّا؛ فالوقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾، والوقف على الوجهين تامّ».

(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/99، ويُقارن بما ذكره ابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 1/224.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ أي: ذلك الكتابُ المَوْعودُ بتَنزيلِه[1]، أو: ذلك الكتابُ الذي تَتْلونَه وتَقرَؤُونَه، وهو حَاضِرٌ في أَذْهانِكُم، فهو الكتابُ باعتبارِ ما نزلَ ممَّا تعرفون، وما سينزِلُ ممَّا ستعلمون.

الفَرقُ بين اسمي الكِتَابِ والقرآن:

الـكـتـابُ اسـمٌ للوَحي بوصفِه مكتوبًا، والقرآنُ اسـمٌ بوصفِه مقروءًا

(الكِتابُ) و(القرآنُ) كلاهُما اسمٌ لِلوَحْيِ المُنَزَّلِ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ، فهُمَا بهذا الاعتبارِ مُترادفانِ، إلَّا أنَّ كلًّا منهما يُشيرُ إلى وصفٍ ليس في الآخَرِ، فـ(الكتاب) يُشير إلى كونِه مكتوبًا، إمَّا في اللَّوحِ المَحْفوظِ فيمَا كانَ وما هو كائِنٌ ومَا سَيكُونُ، أو في الصُّحُفِ التي بين أَيْدِي النَّاس بعدَ نُزُولِه، أو كلاهُما وهو الأظْهرُ، و(القرآنُ) يُشير إلى كونِه مَقْرُوءًا مَتْلُوًّا، وفي هذه الإِشَارَةِ تأكيدٌ على حِفْظِ الكِتَابِ المَكْتُوبِ، ودعوةٌ إلى قراءتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

نَـفْـيُ الـرَّيْـبِ الـذَّاتِيِّ عَـنِ الـوحـي، هو الأنْـسَـبُ بلفظِ الكتَابِ

وأُوثِر التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ دونَ القُرآنِ؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الرَّيْبِ الذَّاتِيِّ عَنْهُ، وهو أنسبُ لِلوَحْيِ المَكْتوب في اللَّوْحِ المحفوظِ وفي الصُّحُفِ، ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذلكَ عدمَ جوازِ الشَّكِّ في الوَحْيِ مُطْلَقًا؛ مقروءًا كان أو مكتوبًا في صُحُفِ النَّاسِ.

جُمْلَةُ: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ بين الخَبَرِ والإِنْشَاءِ:

الـوَحْـيُ المكتُوبُ في الـلَّـوحِ المحفوظِ يقينٌ مُـزيـلٌ لِـلشَّكِّ والرَّيْبِ

جملَةُ: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ خَبَرِيَّةٌ في اللَّفْظِ، فإنْ أُرِيد بالكتابِ: الوَحْيُ المكتُوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ، فهي جملةٌ خبريَّةٌ باقيةٌ على خبريَّتِهَا، يُرادُ بها: المَدْحُ والتَّنْويهُ؛ وذلك بإثبات كمالٍ ضدِّ الوصفِ المنفيِّ؛ فهو كتابٌ "مُشْتَمِل على علم اليقين المُزيل لِلشَّكِّ والرَّيب"[2]، وذلك أخذًا بقاعدة النَّفْيِ المرادِ به المدحُ: أي: النَّفيُ المتضمِّنُ إثباتَ كَمَالِ الضِّدِّ؛ إذِ النَّفْيُ المَحْضُ ليس مَدْحًا ولا كمالًا.

(1) التَّفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر: 1/29.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.

الجُملةُ خبريّةٌ لفظًا، إنشائيّةٌ معنًى، تَنْهى النّاسَ عنِ الارْتيابِ

وإن أُريدَ بالكتابِ: ما بأيدي النَّاسِ ممَّا كُتِب مِنَ الوحي؛ فالجملةُ خبريةٌ لفظًا، إنشائيَّةٌ معنًى؛ يُرادُ بها النَّهْيُ عَنِ الارْتِيَابِ في القرآنِ الكريم، والمَعْنَى: لا تَرْتابُوا فيهِ[1]، والقرينَةُ الدَّالَّةُ على صَرفِ الخَبَرِ إلى الإنشاءِ: وقوعُ ارْتِيَابٍ مِنْ بعضِ الخَلْقِ.

ووُرودُ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أَوِ النَّهْيُ كثيرٌ في القرآن الكريم، وهو ضَرْبٌ مِن ضُروبِ البَلَاغةِ، وفنٌّ من فنونِ المَجازِ؛ وذلك أنَّ وُرودَ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أو النَّهيُ أبلغُ مِنَ الأمر والنّهي الصَّريحَيْنِ، "كأنَّه سُورِع فيهِ الامْتِثَالُ وأُخْبِرَ عَنْهُ"[2].

ويمكِنُ الجمعُ بَيْنَ المعاني السَّابقة؛ فيُقال بِأَنَّ معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا ترتابوا في الوحي المكتوبِ بَيْنَ أيديكم؛ لأَنَّهُ موافقٌ لِلوَحْيِ المكتوب في اللَّوح المحفوظِ، وهُوَ لا ريبَ فيه، وكذلكَ ما بِأَيْدِيكُمْ لا رَيْبَ فيه في ذاتِهِ، فلا يَنْبَغِي الارْتِيابُ فيهِ.

مُناسَبَة التَّعْبيرِ بِمادّة (الرَّيْبِ) دون (الشّكّ):

اسْتِعمالُ لفظِ الرَّيْبِ لمعنى الشَّكِّ في الرِّسالةِ، واتِّهامِ الرَّسولِ بالافتراء

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ دون (لَا شَكَّ فِيهِ)؛ لأَنَّ المشركين -مع تَشْكِيكِهم في القرآن الكريم-؛ كانوا يتَّهمون النَّبِيَّ ﷺ بأنَّه هو الذي افتراه، وهذا بخلاف الوارد في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104]؛ إذ الخِطابُ للنّاسِ، وافتراضُ الشَّكِّ في الدِّينِ وهو التَّوحيدُ، لا في خُصوصِ القُرآنِ، وفي آيةِ يونس "تَعريضٌ ولَحْنٌ من الكلامِ لَطيفٌ"[3]، إذ تدعوهُم للشَّكِّ في دِينِهم، فالتَّعبيرُ بالشَّكِّ هو الأنسبُ بسياقِ الآيةِ.

الإشارةُ إلى أنّ القرآنَ هو الكتابُ الحَقُّ الكَامِلُ بِلا رَيْبٍ

دلالة الوَقْفِ على لَفْظِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾:

إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيْبَ﴾؛ كان مِن إيجَاز الحَذْفِ، والتَّقديرُ:

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/58، والسَّمين: الدُّر المصون: 1/90.
(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 1/195.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264.

لَا ريبَ في أنَّه الكتابُ الكاملُ، وهو وقفُ نَافِعٍ وعاصم[1]، أو يكون المعنى: ذلك الكتابُ حقًّا[2]، وتكون جملةُ: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مُستقلّة بمعنَاها ومَبنَاها.

فائِدةُ تنكيرِ لفظ ﴿هُدًى﴾ لتعظيمِ القرآنِ:

هُـدى الـقـرآن عظيم لا يُدرك شأوه

نُكِّر الهُدَى في قولِه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لتَعظيمه وتفخِيمه، فهو هُدًى عظيمٌ لا يُسبَرُ غَورُهُ، ولا يُدْرَكُ مُنْتَهاهُ، وهو فخمٌ لا يَليقُ إلّا بالمتَّقين.

التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ دونَ اسمِ الفَاعلِ للمبالَغةِ:

القـرآن مصدر الهـدى، بل هو الهدى عينه

يؤيِّدُ دلالة التَّعظيم والتَّفخيم: التَّعْبِيرُ عَنْ هداية القرآنِ بالمَصْدَرِ دون اسمِ الفاعِلِ؛ إذْ كان مُقتضى الظَّاهر إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أن يُقال: (هَادٍ للمُتقين)، ولكنْ عُدِلَ عَنْهُ إلى التَّعبير بالمَصْدَرِ لِلمُبالغَةِ في وصفِهِ بالهدايةِ، فكأنَّهُ هو الهدايةُ نفسُها.

بلاغةُ الأوصافِ المُتواليَةِ:

تـوالي الأوصـافِ مُفْضٍ إلى وَصْفِ القُرآنِ بالكَمَالِ المُطلَقِ

وهذه الأوصافُ المُتَعَاقِبَةُ يُقوِّي بعضُها بعضًا في كون القرآنِ كتابًا كاملًا؛ وذلك لأنَّ قولَه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يقتضي كمالَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَة تعريف جُزأَيِ الجُمْلَة، ومن جهة تعريف (الكتاب) بـ (أل) -على ما سبق بيانه آنفًا-، ثم جاءَ قولُه: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ لِيَشْفَعَ لِلمَعْنَى السَّابقِ ويُعزِّزَهُ، فكَوْنُهُ كتابًا لا رَيْبَ فِيه يَسْتَحِقُّ اتِّصافَهُ بالكمالِ، ثم جاءَ قولُهُ: ﴿هُدًى﴾ مُنَكَّرًا؛ للدّلالة على عَظِيمِ هذه الهدايةِ.

ولكَوْنِ هذه الأوصافِ يُقوِّي بعضُها بعضًا؛ جاءَت الجُملُ مَفْصُولًا بعضُها عن بعضٍ؛ لِلإيمَاءِ إلى كَمالِ الاتِّصالِ بينها.

(1) السّخاويّ، جمال القرّاء وكمال الإقراء، ص: 691.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/110.

توجِيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكْرِ:

إظـهـارُ الـمُـنـتَـفـعـين بِـهِـدَايَـةِ الْـقُـرْآنِ تَشريفًا وتكريمًا

خُصَّ المُتَّقُونَ بالذِّكْرِ في قولِه سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لكونِهم المُنتفعينَ بهِ[1]، وإلَّا فالقرآنُ في نفسهِ هادٍ للنَّاسِ وبيانٌ لَهُمْ جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185].

أَوْ هو مِنْ بابِ الاكتِفَاءِ؛ فقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: والكافرين أيضًا[2]، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81]، أي: والبردَ كذلك، واكتُفِيَ بذكر المتَّقين؛ تشريفًا لهم[3]، ولئلَّا ينقطِعَ النَّظْمُ مع أوصافِهِمُ المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

إبـرازُ قـيـمـةِ الـهِـدَايَـةِ في الـتَّـعـبـيرِ عـن الـنَّـاس بـ(المُتّقين)

ويحتمل أَنْ يكون مِن باب المجاز المُرْسلِ، علاقتُهُ: اعتبار ما يؤولُ إليه الأمْرُ، والمعنى: هُدًى لِلنَّاسِ الصَّائِرينَ مُتَّقينَ[4]، ولعَلَّ فائدةَ التَّعْبِيرِ بالمَجَازِ هَهُنَا: قَرْنُ الكتابِ بذِكْرِ عاقِبَتِهِ الحَسنَةِ على أهلِهِ المُتَمَسِّكين بِهِ، وذَلِكَ أنشَطُ لِلعَمَل، واللهُ أعلم.

سِرُّ التّعبير بالمُتّقين دون المؤمنين أو المسلمين:

التّقوى اجتهادٌ وتَـرَقٍّ في مَـدارج الإيمان والأعـمـال الصّالحة

وثمّة معنًى آخرُ دقيقٌ يحمِلُه لفظُ (المتّقين)، وهو دعوةُ المُؤمنين إلى الاجتهادِ والأخْذِ بأسبابِ التّقوى، والحِرْصِ على التّرَقّي في مَدارج الإيمان والأعمال الصّالحة؛ إذ لفظ (اتّقى) يدلُّ بصيغتِه على الافتعالِ وبَذْلِ الجُهدِ لتحقيقِ الفعلِ، وهذا ما لا يحملُهُ لفظُ (المُسلمين) أو (المُؤمنين)، إذْ هما عنوانانِ للإسلامِ والإيمانِ، وليس عنوانُ الأمرِ كعملِه.

(1) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 26.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/54، والزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن: 3/120.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/64.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/35-36.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّيْبُ والشَّكُّ:

سَبَقَ أنَّ جماعةً مِن العلماءِ يَرَوْنَ أنَّ الرَّيْبَ مُرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإجْماعَ على تَفْسير الرَّيبِ بالشَّكِّ الواردِ في صَدْرِ سورة البقرة[1]؛ وليس في هذا الإجْمَاعِ إجماعٌ على تَرادُفِهما، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيب بالشّكِّ مِن جهة وجُودِ أصل الشَّكِّ فيهِ؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ -كما سيتَّضحُ قريبًا-.

ولذا قال السَّمين الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: (الرَّيْبُ الشَّكُّ مُطلقاً) بِجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[2].

الرّيبُ شكٌّ مع تُهمة، أو شَكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ، والشّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْن مِن دون أَمَارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما:

والتَّحقيقُ أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ اخْتَلَفَتْ عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛

فقيل: الرَّيْبُ: الشَّكُّ مع تُهمة[3]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[4]، وحقيقتُهُ: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[5]، والتُّهَمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلمُخْبِرِ[6].

وقيل: الشَّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقابِلَيْن مِن دون أَمارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، والرَّيبُ: أَنْ يُتَوَهَّمَ في الشَّيء أمرٌ ما، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمَّا تُوُهِّم فيه[7]، فكَأَنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيهِ.

والتَّحْقِيقُ فِيهِ مَا قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله تعالى؛ فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ سِتَّةِ أوجُه؛ نُرْجِعُهَا إلى فَرْقَيْنِ اثنين[8]:

أَحَدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

---

(1) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.
(2) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.
(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.
(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/34.
(6) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409.
(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.
(8) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 4/106.

فأمَّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُريبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رابَنِي أمرُ كذَا، ولا يُقال: شكَّكَنِي.

الشَّكُّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ:

وأمَّا المعنويّ؛ فهُوَ أَنَّ الرَّيبَ بمعنى الاِنْزِعاج والقلَقِ، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا بمعنى لا تُزعِجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصحُّ أَنْ يُقَالَ: لا تُشَكِّكْهُ -بِذَلِكَ الْمَعْنَى-.

والرَّيْبُ فيه -مع الشَّكِّ- مَعْنَى التُّهْمَةِ، فيُقال: رابنِي مجيئُهُ، ولا يقال: شكَّكَنِي مجيئُهُ.

ولذا فَإِنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»